في جحيم الصحراء

كان عند الانكليز سفينة تجارية اسمها ميرزيا فاختطفها حكومتهم واقامتها بين السفن الحربية وسمتها فارا وجعلت مقرها في الاشياء الشرقية من بحر الروم . وفي الخامس من شهر نوفمبر الماضي التقت بها غواصة المانية على ثمانية اميال من الساحل وضربتها بالتوربيد فسقطت آلتها البخارية وقتلت ١٢ من بحارتها واغرقتها في مسع دقائق . فنزل بقية ركابها في القوارب او رموا بانفسهم الى البحر . وظهرت الغواصة حينئذٍ فوق الماء ولكنها لم تحاول اعتقال احد من الذين كانوا يحاولون السباحة بل اسرعت بآليتها الذي في القوارب ان يصعدوا اليها فصعدوا وقطرت القوارب وراءها الى ان وصلت الى ميناء السلوم فامرتهم ان ينزلوا هناك فنزلوا وانزلوا الذين انوا بهم من القتلى والجرحى وكان على البر جماعة من الجنود الاتراك ومعهم ضباط من الالمان فسُلِّم اليهم هؤلاء الرجال كاسرى حرب . وقد وصف اثنان منهم ما لقوهُ مدة اسرهم الى ان انقذهم دوق رتمنستر فلخصنا وصفهما بما يأتي قالا

كان نوري بك اخو انور باشا بين الضباط وكأنهُ اكبرهم مقاماً على ما يظهر فقال لنا انتا نستطيع ان نكتب الى اهلنا ونخبرهم اننا احياء وهو يرسل المكاتيب اليهم فكتبنا وسلمناهُ المكاتيب ثم وجدنا في اليوم التالي انهُ مزقها ورماها . واعطونا في الليلة الاولى عنزتين لنأكل لحمها ولكنهم لم يعطونا آنية نطبخهُ فيها فجمعنا حطباً وقشَّا واضرمنا النار وشويتا العنزتين واكلناهما

ويشتدُّ الحرُّ نهاراً والبرد ليلاً في تلك الانحاء وكانت ثياب اكثرنا مبللة فليتصوَّر القارئ ما حلَّ بنا ذلك الليل ببرد القارس لاننا كنا في العراء السماء غطاؤنا والارض فراشنا . وأمرنا في الصباح ان نحفر توارينا الى البر ونبعدها عن البحر مئة متر لكي يتعذر علينا الهرب بها . ثم أعطي كلُّ واحد منا بسماطتين وهما جرايتهُ في اليوم وأمرنا ان نمشي في وادٍ كله حجارة صوان حادة فجرحت اقدام الحفاة منا

وفي السابع من نوفمبر وصلنا الى مكان فيه نحو مئة من جنود الاتراك فاقيموا على حراستنا وجاءنا طبيب نبهتم بنا فحسَّن ضمادنا نوعاً بان زيد بسماطة في اليوم لكل واحد وقليل من الارز وعنزة لنا كلنا ولكننا بقينا نبيت في العراء لا غطاء ولا وطاء

وفي الثاني عشر من نوفمبر أُرسلنا الى مرسة وكنا نسير خمس ساعات سيراً حثيثاً ثم

نستريح قليلاً ونعود الى السير وفي الساعة الرابعة بعد الظهر نعطى جرايتنا وهي حفنة من الارز لكل منا ونعاود السير سبع ساعات متوالية بما نحن فيهِ من الجوع والتعب وحراب البنادق تخس ظهورنا . وكان المظنون اولاً ان المكان الذي ارسلنا اليهِ لا يتجاوز بعده ٢٥ ميلاً فتجاوز ثمانين ولم نصل اليهِ

وفي السابع عشر من الشهر هرب واحد منا فأخذنا بجريرتهِ والتزمنا ان نسير ٤٨ ساعة بلا طعام مطلقاً وبما لا يبل الحنكنا من الماء . وهنا فرغ صبرنا ولم يبق فينا رمق وجعلنا نقع في الطريق اعياء فامرنا الحراس ان نقف واعطوا كلاً منا كوبة من الماء ولكن لم يعطونا شيئاً من الطعام . ولما انتصف الليل انهضونا وامرونا بالسرى

وكل مدة سيرنا في القفر مسافة ٢٨٠ ميلاً لم تزد جراية الواحد منا في اليوم على بقسماطة وست ملاعق من الارز وكان متوسط سيرنا ١١ ساعة كل يوم وقائد الحرس راكب فيستحثنا حتى نجاري فرسهُ ونُضرَب اذا تأخرنا عنهُ

وكان اكثرنا حفاة و يكادون يكونون عراة ايضاً خرقتنا الشمس وورمت السنتنا واسودت من العطش واحمرت عيوننا وبهرت من نور الشمس وصرنا نجر انفسنا جرًّا من شدة التعب والسغب فوصلنا الى بئر الحاكم ونحن في حالة يرثي لها قلب الجماد وصرنا حينئذٍ في اسر السنوسي . ولم تنتهِ مشاقنا هناك . والرياح في الليل شديدة قارسة وكنا ننام في العراء فاقتنا سوراً من التراب حولنا يمنع عنا عصفها . وابتدأ فصل الشتاء حينئذٍ فاعطانا العرب بعض الخيام القديمة لننام فيها وهي نذرة مملوءة بالهوام . وزاد الطين بلة ان أُصبنا بالدوسنطاريا لكن الضابط العثماني الذي كان يتولى قيادة رجال السنوسي قال ان لا بدَّ من تشغيلنا ولو كرهاً موقتاً وامرنا ان نسير كل يوم خمسة اميال في القفر ونتزح بعض الآبار ولكن اشتدَّ المرض على المرضى منا حتى رأى هذا الرجل ان اجبارهم على السير الى تلك الآبار صار ضرباً من المحال

وفي اول دسمبر اخذوا كل ما كان معنا من فضة وذهب من نقود وساعات وخواتم وما اشبه وجعل النساء والاولاد يرشقوننا بالحجارة ايمنا رأونا

وكان معنا كلب تبعنا من السفينة فرافقنا واشترك معنا في الضرّاء وكان الحامي الوحيد لنا وهو اشفق على الانسان من الانسان

وكنا نعطى قليلاً من الدقيق من وقت الى آخر فنجبلهُ بالماء ونبسطهُ على قطعة محماة من الصفيح حتى يخبز ونسر بهِ كاطيب المآكل . وهنا صارت جرايتنا تعطى لنا كل اسبوع

وفي ثلاثة اكياس من الارز زنة كل منها نحو ثلاثين اقة فسررنا اولاً لاننا ظننّاها ارزًا كلها ولكنّ لما فحصناها وجدنا في كل منها كثيراً من الحجارة الكبيرة . وفي نحو الخامس عشر من دسمبر امرنا السنوسي ان لا نأكل الاّ مرة واحدة في اليوم وان نحفر خنادق تجري فيها مياه المطر الى الآبار . ومات واحد منا في ١٨ دسمبر وحينئذٍ استرحم طبيبنا ان يزاد طعامنا فجعلوا يعطوننا قليلاً من الفحم كل يوم على خمسة ايام ثم ابطلوا ذلك كانهم ندموا على ما فعلوا

اما نحن فرأينا ان لا بدَّ لنا من السعي والجد لعلنا نجد شيئاً نقتات بهِ فوجدنا في القفر كثيراً من الحلزون فجعلنا نجمعهُ ونأكلهُ وقضينا اربعة عشر يوماً وطعامنا الحلزون ثم أُعطينا قطيماً من المعزى لنأكل منهُ عشرين كل يوم ففعلنا الى ان اكلنا القطيع كلهُ فجعلوا يعطوننا شيئاً من التمر نحو عشرين تمرة لكلٍّ منا في اليوم . ووصلنا حينئذٍ الى اشد درجات الهزال وكان اكثرنا مصاباً بالدوسنطاريا وكدنا نقطع الرجاء من كل نجاة ورأينا ان لا بدَّ من ان نموت جوعاً اذا لم نجد منقذاً فعزم الكيتن ويمس ان يهرب عساهُ ان يصل الى السلوم ويسعى في نجاتنا فتربص الى ان ارخى الليل سدولهُ وكان قد اعدَّ قربة ملأها ماء وحملها وكنا قد خبأنا لهُ قليلاً من التمر فوضعهُ في جيبهِ ليتقوت بهِ وتسلَّل خفية ولاذ بالفرار وبعد ايام قليلة سمعنا صوت البنادق فالتفتنا واذا فرسان من السنوسية قادمون وهم يسوقون هذا المسكين امامهم ولما وصلوا بهِ جلدوهُ بالسياط ورشقهُ النساء بالحجارة وجعلوا بيتهُ في حظيرة المعزى

وفي ٢٣ يناير مات منا واحد آخر جوعاً فعدنا الى التفتيش عن الحلزون واكلهِ الى ان لم تبقَ حلزونة في تلك القفار وصرنا نضطر ان نبعد كثيراً في التفتيش عنها ووجدنا نباتاً يشبه الفصة فجعلنا نجمع جذورهُ ونسلقها ونأكلها واخيراً اتصلنا الى دق نوى التمر بالحجارة واكلها فتقوتنا كذلك الى العاشر من فبراير وحينئذٍ امر السنوسي لكلٍّ منا بقطعة صغيرة من لحم المعزى حتى اذا انتصف شهر مارس ولم يبقَ بيننا وبين الموت جوعاً واعياء قيد شبر وقد ايئسنا بالطلاك قال واحد منا انظروا فاني ارى الخرّاس في فلق فالتفتنا واذا بعض السنوسيين قد صعدوا على المرقب وجعلوا يخطلون نحو المشرق ثم نزلوا وهرعوا الى خيامهم وجمعوا اسلحتهم ونساءهم واولادهم وما عندهم من زاد واركبوا الى الفرار . وبينما نحن مستغربون ما نرى لا نفقهُ لهُ معنى رأينا نقطة صغيرة في الافق ثم اخرى واخرى وبعد قليل تبيَّنا هذه النقط واذا هي اوتوموبيلات مدرعة ولم يكن الاّ دقائق قليلة حتى

وصلت الينا فطفح علينا السرور حتى لم تعد ارجلنا تحملنا . والاتومبيل الاول كان فيه المستر غرغس الفارس الشهير والثاني كان فيه دوق وستمنستر

واول شيء فعلهُ الدوق ورجالهُ انهم اطعمونا طعاماً لم نذقهُ منذ خمسة اشهر حتى امتلأت ضلوعنا ثم رضعوا مرضانا في اتومبيل خاص يحمل المرضى واليسوا كلاً منا رداء كبيراً ووضعونا في الاتومبيلات وعادوا بنا مسرعين . وسبقنا الدوق باتومبيله السريع ليعدَّ لنا مكاناً ننزل فيه فوصلنا اليه في الصباح التالي بعد نصف الليل باعتين ورأينا اللبن والوسكي في انتظارنا فاسترحنا بضع ساعات ثم جيء بنا الى السلوم ومنها الى السفينة رشيدة التي نقلتنا الى الاسكندرية . انتهى

فليقابل القارئ بين المعاملة التي عامل بها العثمانيون والسنوسيون هؤلاء الاسرى وبين المعاملة التي يُعامل بها اسراهم في القطر المصري وليرَ الفرق بين الامم . ولا عبرة بما يعامل به الالمان اسراهم لانهم شذوا عن الامم المتمدنة باختيارهم حاسبين الارهاب وسيلة لقهر الاعداء كالبندقية والمدفع

اذا عاد التمدن القهقرى الى هذه الحالة الشوهاء فخير لنوع الانسان ان ينقرض عن وجه البسيطة

ويخطئ من يظن ان الاقدمين كانوا ارحم من المتأخرين من هذا القبيل فان في تواريخ كل الامم القديمة من ضروب القسوة ما تقشعر منهُ الابدان . كانوا يشوون الاسرى بالمناشير ويبقرون بطون الحوامل ويدوسون الاطفال بسنابك الخيل ويسملون العيون ويجدعون الانوف ويصلمون الآذان ويقطعون الايدي ويصلخون الجلود ولم يتركوا وسيلة من وسائل التعذيب الاَّ اتوها . لكن القرن الماضي ابطل كل ذلك تقريباً وكنا نرجو ان تزول آثار الهمجية في هذا العصر فاذا هي قد نمت وقويت

الفت سيدة اميركية رواية وصفت فيها ما كان الارقاء يلاقونهُ عند اسيادهم من ضروب العذاب فكانت تلك الرواية باعثاً على الحرب الاميركية الاهلية التي ابطلت الرق . فهل من كاتب بليغ يصف ما لاقاهُ الاسرى في هذه الحرب كما وصف كاتب المقالة المتقدمة عسى ان يكون في ذلك ما يدعو الى تبادل الاسرى حالاً والاتفاق على خفض شوكة التوحش